

أضواء البيان

@ 155 @ وقول النابغة الجعدي : % (ومثل الدمى شم العرانيين ساكن % بهن الحياء لا يشعن التقافيا) % .

والذي يظهر لنا أن أصل القفو في لغة العرب : الاتباع كما هو معلوم من اللغة . ويدخل فيه اتباع المساوي كما ذكره من قال : إن أصله القذف والبيت . . .
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّهُ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مَرْسُؤُهُمْ } فيه وجهان من التفسير : الأول أن معنى الآية أن الإنسان يسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه فيقال له : لم سمعت ما لا يحل لك سماعها ؟ ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليها ؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليها ؟ .
ويدل لهذا المعنى آيات من كتاب الله تعالى ، كقوله : { وَلَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، وقوله { فَوَرَبَّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، ونحو ذلك من الآيات . . .

والوجه الثاني أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال صاحبها ، فتشهد عليه جوارحه بما فعل . . .
قال القرطبي في تفسيره : وهذا المعنى أبلغ في الحجة . فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزي كما قال : { الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } ، وقوله : { شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . . .
قال مقبده عفا الله عنه : والقول الأول أظهر عندي ، وهو قول الجمهور . . .
وفي الآية الكريمة نكتة نبه عليها في مواضع أخر . لأن قوله تعالى : { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّهُ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مَرْسُؤُهُمْ } يفيد تعليل النهي في قوله : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } بالسؤال عن الجوارح المذكورة ، لما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه : أن (إن) المكسورة من حروف التعليل . وإيضاحه : أن المعنى أنته عما لا يحل لك لأن الله أنعم عليك بالسمع والبصر والعقل لتشركه ، وهو مختبرك بذلك وسائلك عنه ، فلا تستعمل نعمه في معصيته . . .
ويدل لهذا المعنى قوله تعالى : { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا }